المنفى

عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

لن أذكر اسم المكان ، ولن أذكر اسم بطل القصة . أما الأول فهو بعيد جداً فى جهة خصبة حارة على شاطئ البحر . وقد كنا نسير بقرب ذلك الشاطئ فنرى عن يميننا مزارع القمح الخضراء وعن يسارنا أمواج البحر التى تهتز تحت أشعة الشمس . وكانت الأزاهير الغضة نابتة على حافة البحر مطلة على مائه . وكان اليوم شديد الحر ولكن جوه زكى العرف قد تشبع بروائح التربة الخصبة والأعشاب والأزاهير والماء ، فكأننا كنا نستنشق مع الهواء عبير الحياة العطر

وقيل لنا إننا سنكون فى المساء ضيوفاً على رجل فرنسى يقيم فى وسط بستان البرتقال . ولم أكن أعرف هذا الرجل ولا أعرف عنه سوى أنه جاء إلى هذه الجهة منذ عشرة أعوام فاشترى أرضاً واسعة جعل بعضها كرمة وبعضها مزرعة برتقال وسائرها خصصه لزراعة القمح . وأقام من ذلك العهد فى أرضه يعمل كادحاً مجداً . وكان يزيد نطاق أرضه اتساعاً كلما مر شهر أو عام فحصل على ثروة واسعة بهمة لا تعرف الفتور

وكان جيرانه يقولون : إنه يستيقظ قبل الفجر ويظل يعمل فى حقوله إلى هزيع من الليل وجعل نصب عينيه فكرة واحدة لا يمكن إرواء ظمئها ، وهى فكرة الحصول على الثروة

وكانت الشمس قد غربت عند ما وصلنا إلى منزله فى حديقة البرتقال . ولما دخلنا المنزل المطلة شرفاته على البحر خرج لاستقبالنا رجل طويل القامة طويل اللحية . وبعد أن سلمت عليه طلبت أن يقبل ضيافتى ، فمد إلى يده وقال وهو يبتسم : « تفضل أيها السيد أنت هنا فى منزلك »

ثم قادنى إلى غرفة خصصها لى . ووضع تحت تصرفى خادماً . ورأيت من كرمه ما دلنى على حسن تربيته . وقال وهو يتركنى : « إننا سنتناول العشاء فى الطابق الأرضى بعد أن تستريح وتغير ثيابك »

وتعشينا فى غرفة تطل على البحر . وتكلمت عن هذه الجهة الجميلة النائية الغنية . فقال لى : « نعم هى جميلة غنية . ولكن لا يمكن أن يسر الانسان فى بلاد مهما كان جمالها وغناها ما دامت بعيدة عن وطنه الذى يحبه »

قلت : « أأنت آسف على مغادرتك فرنسا ؟ »

فقال : « إننى آسف على مغادرتى باريس »

قلت : « إذن فلماذا لا تعود ؟ »

فقال : « إننى سأعود »

ثم أخذنا نتحدث عن باريس وعن شوارعها الواسعة الطويلة . وكان كلامه عنها كلام من يعرفها حق المعرفة . وذكر لى عدة أسماء لا ينساها من زار الأحياء التى فيها مسارح الفودفيل فى باريس

قال : « من الذين يقابلهم الانسان فى تورتينى الآن ؟ »

فقلت : « هم الذين كانوا فيها دائماً عدا من مات منهم »

قلت ذلك ثم سكت فجأة لأنى نظرت إليه نظرة بعثت فى نفسى ذكرى . وأدركت أننى كنت رأيته ولكن متى وأين ؟

وكان يبدو عليه التعب والحزن على الرغم من

علائم القوة وصلابة العزم . وكانت لحيته الطويلة متدلية إلى صدره . وكان يمسكها بيده أحياناً أثناء الكلام . وهو خفيف شعر الرأس غليظ الحاجبين كبير الشاربين وفي خديه بقع مملوءة بالشعر ملحقة بلحيته

وكانت الشمس تغرب فيما وراء البحر الذى تطل عليه مرسلة شعاعها الذهبي إلى الشاطئ . وكان البرتقال الذهبي يبعث رائحة قوية جداً فى جو هذا المساء

كان مضيفى لا ينظر إلا نحوى . وكان ينظر إلىّ محدداً فىّ بصره . ثم وقع نظرى ونظره على صورة معلقة فى الحائط تمثل جهة فى شارع دروت فسألنى : « هل تعرف هذا الشارع ؟ »

قلت : نعم . فسألنى : « هل تعرف بوتريل ؟ »

قلت : « أعرفه حق المعرفة »

فقال : « هل تغير كثيراً ؟ »

قلت : « لا . بل لا يزال كما هو »

فقال : « وهل تعرف لاريداى ؟ »

قلت : « وهذا أيضاً لم يزل كما كان »

فقال : « والنساء ؟ هل تعرفهن ؟ قل لى شيئاً عن سوزان فرنر »

قلت : « إنها لا تزال كما كانت فى شرخ الشباب »

فقال : « وصوفيا أستير ؟ »

قلت : « ماتت »

فقال : « مسكينة أستير .. هل .. هل تعرف .. »

ولكنه سكت فجأة وتغير لون وجهه وقال بصوت غير صوته الأول : « كان خيراً ألا أتكلم إنها ذكريات مؤلمة »

ثم وقف وكأنه يريد أن يغير اتجاه أفكاره فسألنى هل أحب أن أزور بقية المنزل ؟

ثم سار فتبعته

وكانت غرف المنزل واسعة ولكنها تكاد تكون خالية من الأثاث وشكلها يدل على أنها لم تستعمل قط . وكان فى إحدى هذه الغرف أوان وزجاجات خالية متروكة على الأرض . وقد علقت على الحائط بندقيتان وقصبة لصيد السمك ، وبعض الفؤوس

وقد قال صاحب المنزل وهو يريني هذه الأشياء المبعثرة : « أليس هذا المنزل أشبه بسجون المنفيين منه بالمساكن ؟ »

وكنت أتخيل لو لم يقل ذلك أننى فى بعض الحوانيت التى تباع بها السلع المستعملة . وكان مما رأيته بين هذه السلع دبوس شعر مما تستعمله السيدات لتثبيت القبعات فوقفت أمامه وقد بدت علىّ علائم الاستغراب ، فوضع مضيفى يده على كتفى وقال : « إن هذا الدبوس هو الشيء الوحيد الذى أحرص عليه فى هذا المنزل — لا بل إن حرصى عليه يزيد عن حرصى على حياتى »

ففكرت لكى أجد كلمة مناسبة أقولها فلم تسعفنى الذاكرة إلا بقولى : « أظنك عانيت فى الحياة كثيراً بسبب امرأة » فقال : « إننى أعانى مالم يعانه أتعس إنسان . وإننى سأسألك عن اسم آخر ولكن إذا قلت لى إن صاحبته قد ماتت كما قلت لما سألتك عن استير فانى سأقضى على حياتى فى هذا اليوم »

ومشى فمشيت معه إلى غرفة أخرى وكانت الشمس قد غابت . ونظر إلىّ وقال : « هل جان دى لامور لا تزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « نعم والله » فقال : « وهل تعرفها ؟ »

قلت : « نعم » فتردد لحظة ثم قال بلسان متلعثم : « هل معرفتك إياها إلى درجة تسقط التكلف ؟ »

قلت : « لا » فقال : « حدثنى عنها »

قلت : « ولكن ليس عندى ما يستحق التحدث

به سوى أنها من أجمل الباريسيات وأشهرهن فى الأوساط وهي تعيش كما تعيش الأميرات ، وهذا كل ما أعرفه عنها »

فقال : « هذه هى التى أحبها . وقد حاولت قتلها خمس مرات أو أكثر من هذا العدد . وحاولت هى فقأ عيني بهذا الدبوس الذى رأيته الآن . أنظر إلى أثر الالتحام الذى تحت عيني اليسرى . إنه من أثر هذا الدبوس . وكان كلانا يحب الآخر ، وقد لا تكون على استعداد لفهم ذلك ، فان الحب الشائع بين الناس حب بسيط . ولكن الحب القوى لا يخلو من العنف . والمحبون من هذا النوع يعبد أحدهما الآخر ولكنه يتوق إلى قتله .

« وقد أهلكتنى هذه الفتاة فى ثلاثة أعوام أضعت فى خلالها أربعة ملايين من الفرنكات ثمناً لابتسامات حلوة ونظرات فتانة . وقد وجدت فيها شيئاً لا يقبل المقاومة ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ لست أدرى هل هو قوة عينيها ؟ هل هو عذوبة ابتسامتها ؟ هل هو صوتها ؟ لقد عشت ثلاثة أعوام عانيت فيها من الآلام ما لم يعانه إنسان . وكانت تخدعنى وتخونني لا لشيء سوى الرغبة فى خيانتى وخداعى ، فلما استكشفت ذلك وخاطبتها قالت لى : « هل نحن متزوجان ؟ »

ولما تركتها وجئت إلى هنا استطعت أن أفهمها أكثر من قبل فهى لا تستطيع أن تعيش دون أن تخدع »

قال ذلك ثم سكت بضع دقائق استمر بعدها يقول : « فلما أنفقت عليها آخر درهم قالت لى : « أنت ترى يا عزيزى أننى أحبك أكثر مما أحب أى إنسان آخر ، ولكننى أريد أن أعيش ولا أستطيع الحياة مع الفقر . ولذلك لا أرى بداً من أن نفترق »

ولقد وجدت من نفسى عندما سمعت ذلك دافعاً آخر إلى تقبيلها فمددت يدىّ إليها لأعانقها وأخنقها في نفس الحين . وقد كان في عينيها غير الجمال قوة أخرى قاسية . ولعل هذا هو السبب الأكبر لحبي إياها وكان فى نعومتها زيادة لا تبعث فى النفس عاطفة غير الجنون

« ولقد سكرت وانتشيت وجننت بحبها وبعثها . ولما كنت أمشي معها فى الطريق كانت تنظر إلى كل رجل تمرُّ به نظرة كأنها بها تسلم نفسها إليه ؛ وكنت أشعر وأنا أسايرها أنها من متعلقات كل إنسان ، وأنها خلقت كذلك رغم أنفها ورغم أنفى ورغم أنوف الناس جميعاً

« أتفهم يا عزيزى معنى ذلك ؟

« تستطيع إذا فهمته أن تتصور أى عذاب كنت أعانيه ؟

« لقد كنت أذهب معها إلى المسرح أو إلى المطعم فأحس بأن نظرات الناس إليها عناق وتقبيل ؛ وكنت أعتقد أنى إذا غبت عنها جاء الناس جميعاً ليجلسوا إليها . ولقد مرّت عشرة أعوام لم أرها فيها ولكن حبي لها لا يزال كما كان »

وكان الظلام قد اشتد فى هذا الوقت وزاد تصاعد الروائح العطرة من حديقة البرتقال وسألته :

« وهل تريد أن تراها مرة أخرى ؟ »

فقال : « إننى أملك الآن ما يربو على الثمانمائة ألف فرنك . فعندما تصل ثروتى إلى مليون فانى سأبيع كل شيء وأعود إلى باريس ويكفينى من العمر بعد ذلك عام واحد أقضيه معها فى أحلام رائعة كأحلامى السابقة

قلت : « ثم ماذا ؟ » فقال : « ثم أودع الحياة مسروراً أو أطلب إليها أن تستخدمنى سائقاً لسيارتها ! »

عبد اللطيف النشار